الفصل الثاني

مشكلتا التصنيف والحدِّ الفاصل في "البراديم كولن"

(أو نحو موسوعة لنماذج كولن)

"القرآن الكريم كتاب يعنى بالعمل أكثر مما يعنى بالرأي"

(محمد إقبال، إصلاح الفكر الديني)

obeikandl.com

obeikandl.com

مشكلتا التصنيف والحد الفاصل في "البراديم كولن"

مدخل

تعالج نظرية المعرفة مشكلة الحدِّ الفاصل[1]، وعلى إثرها مشكلة التصنيف؛ ويعتقد كارل بوبر أنها أبرز مشكلة في الفكر الفلسفي المعاصر (منطق الكشف العلمي، ص٦٩)، وقد شارك في تحليلها أبرز الأسماء والجماعات العلمية: كانط، وحلقة فيينا، وراسل... وهي تحاول أن تُظهر الحدَّ الفاصل بين العلم بمدلوله الاستقرائي والعلوم الميتافيزيقية التي ترفضها المنظومة الوضعية، لكونها استنباطية.

ولعلَّنا نستعير من حقل الفلسفة المبدأ المنهجيَّ لهذه المشكلة، ونعتمده في تحليل ودراسة "البراديم كولن"، ونتساءل بناء على ذلك:

ما هو الحدُّ الفاصل بين "البراديم كولن" وغيره من التجارب الفكرية والحركية؟

أو، ما هي أبرز الأفكار والأطر الفكرية والعلمية والعملية التي تقع في الحدِّ الفاصل بين "البراديم كولن" وغيره؟

---

١ يقول كارل بوبر: "سنطلق اسم مشكلة الحدِّ الفاصل على مهمَّة إيجاد معيار نستطيع معه رسم الحدود الفاصلة بين العلم التجريبي من جهة، والرياضيات والمنطق من جهة أخرى، ثم بينها وبين النظم الميتافيزيائية" (منطق الكشف العلمي، ص٦٩).

أو، متى يُعتبر الإنسان عضوا في الخدمة؟ ومتى يعدُّ خارجا عن إطارها؟ وأسئلة أخرى كثيرة....

تميل بعض الفرق والجماعات إلى إحياء طقوس الالتحاق، يُعلن فيها مريد الانتماء إليها ولاءه وإخلاصَه لها، مِن يومها يصير فردًا من أفرادها، وجنديًّا في صفِّها، منسوبا إليها، معدودا في حسابها.

وتفضِّل حركات أخرى جملة من المبادئ أو القواعد، مَن التزم بها كان منها، ومن لم يفعل لا يعدَّ ضمنها، ومثال ذلك "الأصول العشرون لحسن البنا"، التي هي أساس حركة الإخوان المسلمين، وكذا "المبادئ الستة" لجماعة الدعوة والتبليغ، التي يتبناها كل عضو تبنيا كاملا.

لكن، هل لدى أبناء مؤسَّسة الخدمة قواسم مشتركة، وصيغة لإعلان الانتماء والولاء؟

ويزداد السؤال إلحاحا في مستوى عامَّة الناس، الذين لا يستوعبون الأفكار العميقة، ولا يطالعون المؤلفات الطويلة، ولا يدركون أبعاد النصوص الدقيقة... ومن ثمَّ يتعيَّن هذا السؤال: هل مثل هؤلاء أعضاء ومنتمون للخدمة؟ بماذا؟ وكيف؟

قبل الإجابة على هذا السؤال، ينبغي أن ننبه إلى جملة من الملاحظات الجوهرية التي نحتناها بمطالعة المصادر المكتوبة، وبمعاينة الوقائع اليومية لحركة الخدمة، منها:

١- أنَّ فتح الله لم يصرِّح يوما أنَّه يريد تأسيس حركة معيَّنة، أو جماعة مخصَّصة؛ وإنما نشاطه الدعويُّ، وإخلاصه الإيمانيُّ، وتبحُّره العلميُّ... كلُّ ذلك دفع الناس إلى تقبُّل منهجه، والسير على إثره. يعرض فتح الله في

"الموازين" طريقة ميلاد ونمو كلِّ مشروع، فيقول: "يبدأ كلُّ تقدُّم بفكرة معيَّنة وتصوُّر معيَّن، ثم يتمُّ قبول هذه الفكرة من قِبل الجماهير، ثم تتحقَّق بجهود الأفراد المتكاتفين معاً في هذا السبيل. ولكن إن لم يكن للعلم نصيب في تخطيط هذه الفكرة، أو لم يُسمح للعلم بذلك، فكلُّ جهد وكل تعبئة عامَّة لإنجاحها محكوم عليها بالفشل"(ص٨٩). وبشيء من التأمُّل نجد أنَّ الأستاذ كان صاحب تلك الفكرة والتصوُّر، وأنَّ الجماهير تحوَّلت بعد القبول إلى الخدمة.

٢- أنَّ أبرز صفة في مؤسَّسة الخدمة هي "المرونة والليونة، والتحرُّر من القوالب والأنماط"؛ ولذا فإنَّ "البراديم كولن" راعى الظروف والأحوال مراعاة كاملة، فتطوَّر ونما، وغيَّر في الوسائل والأدوات، ولم يتحجَّر داخل قالبٍ واحد، شأن بعض الجماعات والحركات.

٣- أنَّ الأستاذ كولن ليس زعيما روحيًّا، بما تحمله هذه الصفة من معان إيجابية وسلبية؛ فلم يقبل يوما أن يُعدَّ كذلك[١]، لكنَّه "مرشد"، و"موجِّه"، و"نذير"، و"مجتهد في رسم الخطط والمقترحات"... تاركا لكلِّ منتم إلى الخدمة مساحةً كبيرة للحرية والإبداع في الحركة والتطبيق... مُعتبرًا في ذلك اختلاف المواهب والقدرات، وتباينَ المدارك والعطاءات...

٤- إذا اعتبرنا النقاط السابقة فإنَّ الخدمة لا تصدق عليها الأسماء المعهودة والمألوفة، من مثل: الجماعة، والحركة، والمؤسَّسة... بل تتجاوزها إلى "تحوُّل في البراديم" (أوغلو، تحول البراديم)، أو إلى "براديم

١ عنوَن حسين كولرجه (Hüseyin Gülerce) مقالا له عن الأستاذ بعبارة دالة على ما ذكرنا، وهي عبارةٌ قالها الأستاذ عن نفسه، في لقاء خاص، قال فيها: "ما أنا إلا فتح الله، ابن رامز"، وزاد في المقال: "أنا إنسان عاديٌّ، ولست مختلفا بأيِّ شيء عن الآخرين" (وكالة جيهان، أكتوبر ٢٠١٠).

جديد" (كوهن، بنية الثورات العلمية)، وليد إرهاصات ومعاناة طالت حقبة تاريخية برمَّتها؛ ولعلَّ أبرز دليل على هذا الحكم أننا وجدنا أقرب المصادر إلى الأستاذ، وأكثر المستوعبين لفكره[1]، وأنشط العاملين في الخدمة، لا يتَّفقون على صفة معيَّنة، ولا مصطلح بعينه؛ ونحن نعتقد أنَّ هذه السعة نقطة قوَّة للمشروع، وسبب من أسباب المدِّ الحركيِّ الفعليِّ...

٥- أنَّ أقرب وصف إلى مؤسَّسة كولن، إذا ما غضضنا الطرف عن مصطلح البراديم، الذي قد يصعب استيعابه، هو كونها: مشروعا حضاريا شموليا عالميا، منطلقه أخلاقي تربوي، فهو ليس حزبا سياسيا، ولا جماعة دينية، ولا مدرسة فلسفية، ولا طريقة صوفية.

معالم في الحدِّ الفاصل

والآن بعد رسم المعالم الكبرى لتصنيف الخدمة، ووضع المشروع في خانته اللائقة، نعاود الكرَّة في طرح السؤال عن الحدِّ الفاصل في الانتماء، ونقرِّر جملة من النقاط، هي:

١- كلّ المنتمين إلى الخدمة مُجمعون على كون الأستاذ هو المؤسس، وأنَّ فكره هو المنطلق، وأنَّه صاحب المخطَّط النظريِّ، وهو الراعي للتطبيق والإنزال إلى أرض الميدان، ولا يزال. فليس في هذه النقطة جدال ولا اختلاف.

٢- لا يختلط على أحد كون أبناء الخدمة مختلفين جدًّا، وليسوا قالبا وشكلا واحدا، سواء في لباسهم، أو رؤاهم، أو مستوياتهم... مع وجود

---

١ في حوار مع الدكتور إحسان يلمز، المتخصِّص في فكر الأستاذ، بجامعة فاتح، أكَّد لي هذا الحكمَ، وتحدَّث عمَّا سماه بدار الخدمة، إضافة إلى دار الإسلام، ودار الكفر. ثم إننا اتفقنا على أنَّ مصطلح "الخدمة" وحدَه، مجرَّدا من أيِّ إضافة، قد يكون دالاً على الحركة دلالة ممتازة.

قاعدة اتفاق، سنحاول الكشف عنها باستنطاق النصوص، والمؤسسات، والأشخاص، والحوادث، والإشارات.

٣- لم نسجل لفظية[١] في كلام أبناء الخدمة، فليست ألفاظهم وعباراتهم من قبيل المحفوظات والمكرَّرات، ولا هي واحدة في كلِّ مكان، وعند أيِّ إنسان... ولقد تتبعتُ حركةً من قبل، لها شأن ومكانة في بلدها، غير أنَّ أعضاءها على كثرتهم يُعيدون نفس الكلام الذي صاغه المؤسِّس، لا يزيدون ولا يُنقصون، فيدفعون إلى الملل، ويُعطون إشارة إلى قتل المواهب والفروقات...

٤- يظهر الحدُّ الفاصل -ابتداء- بين الخدمة وغيرها، في الميزات الآتية:

أ- السمت الإيمانيّ التربويّ الأخلاقيُّ.

بـ- مصدرية القرآن الكريم والسنة النبوية

جـ- كثرة الذكر والفكر، بناء على محور "أسماء الله الحسنى".

د- الحبُّ الشديد للرسول ﷺ، والاجتهاد في اتباع سنته.[٢]

حـ- الفهم الشموليُّ الكونيُّ العميق للإسلام.

ط- الحركية وإرادة الخدمة والنفع، والتفاني في زرع الخير والبر، بلا هوادة، بناء على مقولة الأستاذ: "اعملْ الخيرَ ثم انْسَه، ثم انسَ أنَك نسيتَه".

---

١ عن مشكلة اللفظية في الحركات الإسلامية، انظر- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي. ص٣٩ وما بعدها.

٢ يذكر أنَّ الأستاذ فتح الله ألف كتاب "النور الخالد"، وطبع منه أكثر من مليون نسخة، ثم ترجم إلى عدَّة لغات. وقد التقيت بشاب من شباب الخدمة، له كتاب مبسط في السيرة النبوية، في جزأين، نشر منه في السنة الأولى مائة ألف نسخة، وفي السنة الثانية أربعمائة ألف نسخة. ولهذه الأرقام دلالتها ومعناها.

obeikandl.com

يـ- الجمع بين القلب والعقل والجوارح، أو بين الوجدان والفكر والعمل.

ك- الاستعداد غير المشروط للحوار والتسامح وتقبُّل الآخر.[1]

لـ- عدم التعلُّق بشكل الأمور ومظهرها، مع الاهتمام الشديد بالمحتوى والفحوى.

مـ- العناية الفائقة بالتفاصيل والذوق الجماليَّ والفنَّ الراقي.

لعلَّ أصول هذه الحدود الفاصلة وهذه المعالم الذهبية السبك، تطلب من مؤلفات الأستاذ كولن: التلال، والموازين، وصرح الروح، والترانيم، والنور الخالد... وتصقل مع الوقت من خلال مقدَّمات مجلتي "الرشحة"، و"حراء"... ولا شكَّ أنَّ دروسه السمعية تحتل مكانة عالية في مصادر الأستاذ، لكن لكونها باللغة التركية حرمنا من خيرها وأثرها العميق.

وتتبع النماذج التي تعتبر عنوانا ودليلا على "البراديم كولن"، وتعدُّ رمزا ومؤشِّرا للحدِّ الفاصل بينه وبين غيره، يحتاج إلى إعمال العقل التوليديِّ، ويستوجب العزوف عن القراءة الوصفية المرتجلة، ويفرض علينا الاعتراف أنَّ ما نقوم به في هذا السبيل، وفي هذا البحث بالذات، ما هو إلاَّ مقدِّمة، ومدخل، ومحاولة؛ لعلَّ الإنجاز يكتمل بعد سنين، وفي إطار فريق للبحث، إن شاء الله تعالى.

والميزات التي سردتُها تباعا، ستجد التحليل والتطبيق في ثنايا فصول هذا البحث، مع ملاحظة أنَّ تشكُّل هذه النماذج يأتي بصيغ شتى، لا بصيغة واحدة. من أبرز هذه الصيغ:

١- **الصور المجازية**: وهي من أصدق الملامح إلى الرؤية الكامنة في

---

١ انظر: John L. Esposito and Ihsan Yilmaz: ISLAM and Peacebulding.

ذهنية الكاتب، ومن أحسن الوسائل للولوج إلى عمقه وإلى ماورائياته، وبخاصَّة عندما يكون المؤلِّف لهذه الصور واعيا بها وعيا تامًّا، دقيقا في توظيفها دقَّة بالغة، نابعة من ذاته لا من محفوظاته، ونحسب كولن من هذا الصنف، وهو الأديب المفكر، والعالم العامل.

يقول المسيريّ في بيان أهمية هذه الصور: "الصور المجازية منبع خصب للوصول إلى النماذج التحليلية أو الكامنة، فالصورة المجازية ترجمة مباشرة غير واعية أحياناً لطريقة تنظيم النص. ولذا، لا بدَّ وأن يحاول الباحث رصد التعبيرات المجازية وتحليلها؛ لأنَّه سيصل من خلالها إلى الأنماط الكامنة في النص" (الموسوعة، ج١).

٢- **العبارات الموجزة العميقة (الحِكَم)**: ولم نجد كاتبا اهتمَّ بهذا النوع من العرض في الأدب والفكر أكثر من كولن، فأغلبُ المفكِّرين والكتَّاب والعلماء يميلون إلى المقالات الطويلة، وقد تُستخرج من بين ثنايا هذه المطوَّلات جواهر ولآلئ تضيء سبيل الفهم، وتنوِّر طريق الإدراك؛ لكنَّ كولن عمد إلى صناعة ما يشبه "الكابسولات" المغذية للروح والفكر، وبناءِ النماذج المؤسِّسة للحركية والفكر؛ وذلك منذ بدايات مسيرته في السبعينيات، وهو في الثلاثين من عمره؛ ذلك أنَّه كان يودِعها دفاتر خاصَّة،[1] إلى أن شاء الله تعالى إصدار مجلَّة "الرشحة"، فصار يُخرجها جوهرةً جوهرة، وعمد الناشرون من شباب الخدمة إلى ترصيع صفحات المجلَّة بها، باسم مستعارٍ أحيانا، وبغير اسم الكاتب أخرى، ثمَّ جُمعت وأودعت كتاب "الموازين أو أضواء على الطريق" والعنوان دالٌّ على الغرض والمطلوب (جمال ترك، وأنس أركنه، حوار خاص).

١ أهدى لي الأستاذ جمال ترك، مأجورا، نسخةً من هذه الدفاتر، مصوَّرة من الأصل، مكتوبة باللغة التركية، بحرفها العربي العثماني، لا بالحرف اللاتيني.

obeikandi.com

ثمَّ إنَّ "حراء" راحت -بخطواتها الوثابة- تنشر "صورا معبِّرة" عليها تعاليق، على شكل أصداف أدبية يبدعها الأستاذ من محض خياله، ثمَّ يجمع بينها وبين اللون والحركة والزمن في نسيج عجيب، يقول الدباغ: "ولغة الروح التي يعرفها الأستاذ فتح الله جيّدا، قراءةً وكتابةً، هي التي تُملي عليه أفكارَه فيقيّدها في المتن القصير والعبارة الموجزة، هذه المتون والعبارات والحكم قد يستغرق شرحها عدَّة صفحات"(ألوان، المقدِّمة).

ولقد ازداد إعجابي يوم سألت رئيس تحرير حراء عن العلاقة بين الصورة والعبارة، وعن أيهما أسبق؟ فقال: "في الغالب، نحن نعطي للأستاذ صورة فوتوغرافية أو لوحة فنية، ويقوم هو بالتعليق عليها" (نوزاد صواش، لقاء خاص). وما من شكٍّ أنَّ الأستاذ كان يُطيل التفكير والتأمُّل ليخلص إلى أبلغ معنى في أوجز مبنى؛ وقد أحسن الإخوة إذ أودعوا هذه النماذج كتابا بعنوان "ألوان وظلال، في مرايا الوجدان"، ترجمه الدباغ إلى العربية ترجمة موفَّقة.

هذه النماذج المودَعة نصوصا قصيرة مقصودة لذاتها، يمكن أن يضاف إليها نماذج تستخرج من مقالات مطوَّلة، بإمعان وروية.

٣- **التصرُّفات العفوية، والسلوك الواعي**: ومصدر آخرُ للنماذج في "البراديم كولن"، يمكن نحته بتأمُّل تصرُّفات الأستاذ، وكذا تصرُّفات أبناء الخدمة في سلوكهم اليوميّ، وفي حركاتهم وسكناتهم، وفي عالمهم الجماليّ والفنيّ؛ فمثل هذه التصرُّفات غير المتكلَّفة هي "جينوم الفكر"، أو هي "الخريطة الجينية الإدراكية للمؤسَّسة"، يرتسم عليها كلُّ تفصيل حول المنهج، ولا يخطئ أبدا، يقول كولن في هذا المعنى: "كلُّ إنسان يعكس طبيعته وأخلاقه بتصرُّفاته وسلوكه"(الموازين، ص٢٠). والشرط الوحيد

في التوفيق إلى اكتشافها هو أن تتمَّ المعاينة برهافة وحدس صادقٍ، وأن لا تختلط بالأمثلة المشوّشة الفردية التي لا تعبِّر عن الضمير الجمعيِّ للمشروع.

وهذه التصرُّفات تلاحظ وتستنتج بمعاشرة الإخوة في الخدمة معاشرة صافية بريئة، لا بغرض تصيُّد الزلاَّت والهنات، ولا بمنطلق الانبهار والملائكية الزائفة؛ فأبناء الخدمة بشرٌ، بكل ما تحمل كلمة البشر من شحنة ومعنى؛ فالنظر إلى الغالب والنسبي، لا إلى الكليِّ والمطلق.

وقد سهَّلت لي أسفاري العديدة، وكذا تفرُّغي في الأكاديميا، مهمَّة الكشف عن هذه الإشارات والدلائل على التصرُّفات العفوية، والسلوك الواعي؛ غير أنَّ المعاينة والمعاشَرة كلَّما كانت أطول، كانت أقرب إلى الحقيقة والمبتغى.

هذه مصادر ثلاثة لاستنباط نماذج "البراديم كولن"، وهي باختصار:

الصور المجازية.

العبارات الموجزة العميقة (الحكم).

التصرُّفات العفوية، والسلوك الواعي.

وسنعرض أمثلة لكلِّ مصدر، على أن ندفع إلى استكمال خطِّ الفهم بتأليف موسوعة كاملة شاملة لنماذج "البراديم كولن"، ونرجو أن تكون موسوعة بديعة، جديدة ومفيدة.

الصور المجازية

سنقتصر على عرض عنوان النموذج، والنصِّ الذي استخُرج منه، والعناوين القصيرة البارزة التي تشكِّل النموذج، تاركين التحليل الموسَّع

لمناسبة أخرى، ذلك أنَّ كلَّ صورة مجازية تصلح "عملا أدبيا" للأطفال، أو حتى للكبار، وتصلح في ذات الوقت مقالا فكريا فلسفيا للمتخصصين؛ لكنَّ أفضل شكل يمكن إيداعه فيها هو المقرَّر التربويُّ في مختلف الفنون، وبمختلف المستويات؛ وكولن مربٍّ قبل كلِّ شيء.

١. نموذج النمل:

ورد في افتتاحية حراء، العدد الثامن عشر، بعنوان "رسالة الإحياء"، هذا النص:

"الواجب علينا الآن -مع وضع هذه السلبيات نصب أعيننا-، أن نضع أمامنا أهدافا سامية نتخذ في سبيل تحقيقها قيمنا الذاتية أسسا لصياغة سياسات ومشاريع مستقبلية، حتى يتحقق الاستقرار في سياساتنا... وإذ يتحقَّق الاستقرار في السياسات، نتمكَّن من استخدام هاتين القوَّتين في الاتجاه عينه، من غير السماح للصِّدام بينهما. ونقول "من غير الصدام بينهما"، لِعلمنا بأنَّ أيَّ نشاط أو حركة معيَّنة، مهما تمثَّلت بمشاعر مخلصة، قد لا تكون بنّاءة دائماً. إنَّ النية الخالصة جديرة بالتقدير باعتبارها بُعداً معنويا في الأعمال الصائبة؛ لكن لا تحمل المعنى نفسه البتَّة إذا كانت وصفاً من أوصاف العمل الخاطئ. إنَّ أيَّ حركة من الحركات قد تكون بنَّاءة أو هدَّامة حسب أنماط عرضها. وإذ يفيد العقل والمنطق والمشاعر قيمة في أيِّ مخطط أو مشروع، فإنَّه من المهمّ جداً وجودُ تمثيل سليم ومتين له، إلى جانب انعدام الثغرات العاطفية. وأحيانا قد تُبيد الأعمال بعضها بعضاً بـ"التعارض" و"التساقط"، وإن كان كل عمل من هذه الأعمال بمفرده خيراً وصالحاً؛ فعندما يحاول أفراد النمل أن تنقل مادة إلى خليتها، فتتشوّش بموجات الحسِّ المؤقت أو باختلاف الأهداف في برنامجها

الانسياقي المشترك، يَسحَبُ بعضُها إلى جهة وبعضُها إلى جهة أخرى... فتبدَّد طاقتها كلّها ثم لا تتقدَّم إلى الهدف. كذلك المجتمعات التي لا توجد لها أهداف سامية ومثُل عليا، أو وُجِدت ولم تمتلك معهما جاهزية ذهنية تناسبهما، تجدها تتحرَّك باستمرار، لكنَّها لا تقطع شوطًا؛ لأنَّ قطع الأشواط يتطلَّب -منذ البداية- تعيينَ هدف سام يوقِّره الوجدان ويُرغِّب فيه الانسياق الذاتي في نشوة كنشوة العبادة، ثم تفعيل منظومة سليمة حسب معطيات الظروف والبيئة العامة، ثم توجيه مختلف دورات الطاقات إلى نقطة واحدة معينة، ويعني تسخير التراكم العلمي والتجريبي والطاقة الكامنة لأمر ذلك الهدف السامي والغاية المنشودة".

هذا النصُّ -الذي يصعب بترُه- دستورٌ لعمل الجماعات، ومنهج متكامل لضمان نجاحها، ونموذج "حسَّاس مرهف" في فهم ما يحدث في فكر كولن، وفي أفكار أبناء الخدمة، وهم يصوغون أفكارهم ويمارسون مشروعهم في مختلف الميادين. وأبرز عناوينه:

وضع السلبيات نصب الأعين.

صياغة أهداف سامية.

القيم الذاتية أساس لكل سياسة ومشروع مستقبليٍّ.

الاستقرار في السياسة مطلب ومبتغى.

لا يُسمح بالصدام بين القيم والوسائل.

النية الخالصة ضرورة، لكنها لا تكفي وحدها، بل يجب أن يكون العمل صائبا كذلك.

نمط العرض (How) محدِّد أساس لقيمة الحركية سلبا وإيجابا.

إنَّ أيَّ مخطَّط يحتاج إلى: العقل والمنطق والمشاعر، وإلى التمثيل السليم والمتين له، إلى جانب انعدام الثغرات العاطفية.

خيرية الأعمال لا تضمن لوحدها عدم التعارض والتساقط.

أبرز أسباب التعارض والتساقط: موجات الحسِّ المؤقَّت، واختلاف الأهداف... فالواجب السير بناء على إيقاع ضمن برنامج انسياقي مشترك.

الجاهزية الذهنية والانسياق الذاتي "في نشوة كنشوة العبادة" سرُّ تطوُّر المؤسَّسات.

على قيادة كلِّ مشروع أن تصوغ منظومة سليمة وتفعِّلها، معتبرة الظروف والبيئة (مبدأ التصريف).

لا مناص من تسخير التراكم العلميِّ والمعرفيِّ والتجربة والطاقة الكامنة لصياغة المنظومة.

٢. نموذج المهندس:

وفي "رسالة الإحياء" نموذج آخر، يضبط مسؤولية مهندسي المشاريع والمجتمعات، فيقول الأستاذ:

"ينبغي أن يكون الهدف السامي، الذي يلهب الحماس في صدور الناس ويدفعهم إلى التحرك، هدفا منضبطا بضوابط معينة، ومرتبطا بنظام معين. فإن كنتَ مهندساً، فعليك أن تُعِدّ العدَّة قبل البدء بإنشاء صرح، فتتفحص متانة عناصره وسلامتها، وانسجام آحادها فيما بينها ومشاركتها في جماله ومظهره. وهل يتحقَّق الكمال من غير توافر التوافق والمواءمة والانسجام في الأجزاء كلِّها!؟ إنَّ الهمم والحملات الفردية، إنْ لم تنضبط بالحركة المشتركة ولم تنظَّم تنظيماً حسنا، ستؤدِّي إلى تصادم بين الأفراد

لا محالة... فيختلُّ النظام، وتنهض كلُّ حملة في عكس اتجاه حركة أخرى، وتُنقص كلُّ عملية من قيمة الناتج حتى يقرب من الصفر، كما في حاصل الضرب لكسور الأرقام ببعضها في الحساب. وكما أشرنا سابقا، ينبغي أن لا تُطفأ جذوة طاقةٍ فردية البتة، باحتساب ضرر قد تسببه. بل على العكس، تجب العناية الرفيعة حتى لا تهدر ذرة واحدة من تلك الطاقة، وتوجَّه إلى مجرى الغاية المأمولة المعينة والهدف المنشود، ويزاح خُلُق المصادمة في النفوس ويقَرَّ عقل التوافق بدلاً عنه، بل الأحسن أن يُطَبَّع كل إنسان بهذا الطبع".

وردت هذه الفقرة في نفس سياق "نموذج النمل"، وفي نفس المقال، ولكنها تحمل دلالات إضافية على الحدِّ الفاصل في "البراديم كولن"، وتتوجَّه إلى القيادة قبل توجُّهها إلى القاعدة، ويمكن استنباط معالم موجزة من النصِّ، تسهم في فهم النموذج، وقد تتكرَّر قاعدة أو عبارة فتدلّ بتكرارها على عمقها في فكر الأستاذ، وعلى ضرورتها في حركة الخدمة.

من هذه القواعد نذكر:

- ضرورة انضباط الهدف السامي بضوابط معيَّنة، وارتباطه بنظام معيَّن.

- على المهندس أن يعدَّ العدَّة قبل البدء.

- من بديهيات إعداد العدَّة: تفحُّص متانة العناصر وسلامتها، وانسجام الآحاد فيما بينها، ومشاركتها في جمال الصرح ومظهره.

- كمال المشاريع منوط بالتوافق، والمواءمة، والانسجام.

- الحملات الفردية التي لا تنضبط بالحركة المشتركة، ولا تنظَّم تنظيما حسنا، تؤدِّي إلى التصادم حتما.

- إذا حدث التصادم اختلَّ النظام، ونهضت كلُّ حركة عكس الأخرى، وقرب الناتج من الصفر.

- لا يجوز إطفاء جذوة طاقة بأيّ مبرِّر كان.

- الواجب توجيه الطاقة نحو غاية عالية وهدف.[1]

- على القائد العمل على إزاحة خلُق الصدام من النفوس، وإحلال عقل التوافق في النفوس، بالتربية لا بالشعارات.

- الأحسن أن يصيَّر عدم التصادم طبعا في نفوس الناس، بالتطبيع والتربية؛ حتى لا يأتي تكلُّفا.

٣. نموذج الشمس والظل:

في مقال "المؤمن لا يسقط وإن اهتزَّ" يَعرض الأستاذ المنهجَ السحريَّ الذي يتلقَّى به المؤمنُ جميع العراقيل والمشاكل، وكيف أنَّ غيره غالبا ما يسقط في وهدات اليأس والقنوط. فيقول:

"إن الصورة الحالية للأوضاع صورة مرعبة، ولكنّ تجاوز هذه الأوضاع وتخطّيها بالإيمان والأمَل والتوجُّه إلى الله ليس مستحيلاً. فإن سار الإنسان نحو الشمس أو طار فإنَّ ظلَّه سيكون خلفه، ولكن إن أدار ظهره للشمس فإنَّه يبقى خلف ظلِّه. لذا يجب أن تكون عيوننا مصوَّبة على الدوام إلى المنبع اللانهائي للضوء. أجل، إنَّ كل شيء كما عبَّر عنه الشاعر التركي

---

١ يذكر المؤرِّخون أنَّ القائد الفذَّ "محمد الفاتح" لما تولى الإمارة، جاءته القبائل والبطون تشتكي من سوء حالها، ومن تدهور العلاقات بينها... فعوض أن ينشغل القائد بإطفاء الحرائق، فكّر في تسطير هدف كبير، ودفع الجميع إليه؛ فكان الهدف هو "فتح القسنطينية"؛ وكانت النتيجة ذوبان المشكلات الصغيرة، وبروز قضية واحدة، كبيرة عظيمة. فصدق فيهم حديث المصطفى ﷺ "نعم الأمير أميرها، ونعم الجيش جيشها". كذلك فعل فتح الله مع أبناء الخدمة، فحققوا ما حققوا.

"محمد عاكف" مرتبط بـ"الاستناد إلى الله، والتوسل بالسعي، والاستسلام للحكمة""(حراء، عدد ١٧).

لا ريب أنَّ هذه الصورة المجازية التي أبدع الأستاذ في رسمها، تُبهر العيون، وتدفع القلوب إلى احتباس أنفاسها، وتدعُّ العقول دعًّا نحو الحكمة والبصيرة؛ وأبرز ميزة في هذه الصورة أنها ذات تمثل فزيائيّ دقيق، لا يدركه إلاَّ من اكتملت الصور المعرفية في عقله؛ ونكاد نجزم أنَّ هذه الصورة البلاغية أساسها قول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾(الفرقان:٤٥). ولكنَّ الجديد عند الأستاذ هو هذا التوجيه الحركيُّ الحضاريُّ، الذي يشدُّ الفكرة إلى الفعل بميثاق غليظ، ويولِّد فهما جديدا متجدِّدا لكلام الله تعالى، وللحكمة المطلقة في كتابه الكريم.

ومن القواعد التي نصوغها لِصقل النموذج وتكثيفه، نذكر ما يلي:

- الاعتراف بأنَّ الوضع الحاليَّ مرعب ومقلق.
- الإقرار أنَّ تجاوز هذا الوضع ممكن وليس مستحيلا.
- ولا يكون التجاوز إلاَّ بشروط ثلاثة: الإيمان، والأمل، والتوجه إلى الله وحده.
- حتى يكون الظل (المشاكل والعقبات) خلفنا، يجب أن نتوجَّه دوما إلى المنبع اللانهائي للضوء (الله تعالى).
- كلُّ شيء في الوجود مرتبط بـ: الاستناد إلى الله، والتوسل بالسعي، والاستسلام للحكمة.

٤. نموذج القماش الزاهي:

الإسلام شيءٌ، وفهم الإسلام شيءٌ آخر؛ فقد يرتقي الفهم ويلج بابَ

الحقيقة كاملةً، وليس ذلك إلاَّ للأنبياء والمعصومين، وقد يسمُو الفهم إلى علياء الحقيقة، ويغترف منها غَرْفا تَرويه وتسقي مَن حوله، وهذا حظُّ الأولياء والأصفياء والمقرَّبين؛ وهكذا يبهتُ خطُّ الفهم ويسَّاقط حتى يتدنَّى إلى بئرٍ لا قعرَ لها، وذلك حين يقع الدين ضحية بين أنياب الدجَّالين، بالفكر أو بالفعل، فينهشوه نهشًا، ويُخرجوه قيئًا تعافُه البهائم وذوات المخالب.

وكولن شموليُّ الفكر والفهم لكُنه الإسلام، أوتي حظًّا وافرًا من سعة الأفق وبُعد النظر؛ حتى إنَّ أحد المحللين الشباب قال: "فكرُ الأستاذ شموليٌّ لا يدركه إلاَّ من كان شموليًّا مثله، وإلاَّ لم يدرك منه إلاَّ كما يُدرك الأعمى من حقيقة جسد الفيل" (جمال ترك، بتصرف).

وفي آخر مقال بعنوان "أثناء استكشافنا خطَّ السير"، يصوغ فتح الله نموذجا في هذا السياق، مما جاء فيه:

"إنَّ الإسلام، إذ ينظِّم بالكتاب والسنَّة حياة الدنيا والعقبى للمؤمن، وحال اعتقادِه وعمله، وكيفية عبادته وأخلاقه، يهمس في الوقت نفسه من خلال الأسطر بأشياء أخرى من عالم الامتداد إلى الأبعاد، في أذن دنيا الإنسان الروحية والعقلية والقلبية والوجدانية والحسية، مولِّداً في أغوار ذاته أنساماً أخروية ومشاعر لاهوتية التلوُّن، ليحييه في كلِّ آن مرَّة أخرى في بُعدٍ آخر. يُحييه، ليجد الإنسانُ نفسه في موقع خلافة الله تعالى، وحالِ المداخلة في الأشياء، ومقامِ الفهم والاستقراء لأسرار سنَّة الله. ثم يَرى ويستشعر في كتاب الكائنات النابع من مصدر الإرادة والمشيئة، وبيانه المبين المترشح من نبع كلامه تعالى، كأنهما وجهان لواحد... ويوازن تصوَّرَه وفكرَه، وحياتَه وتصرفاتِه، وملاحظاتِ دنياه

وأخراه، بالموازنة التي في الأرض والسماء.

نعم، إنَّ الإسلام طرح عناصر منسوجاته المهمَّة على العقل والوجدان والروح والجسد، فغزل ذاك القماش الزاهي ذا البعد الدنيوي والعقبوي الغائر في الأعماق. ولئن تقدَّم واحد منهم على غيره في مستوى معين أحياناً، فليس في قدرة أيٍّ منهم أن يصوِّر الإسلام وحده أو يمثله أو يُعبِّر عنه"(ونحن نقيم صرح الروح، ص٢٣).

أبرز القواعد والمبادئ التي تشكل نموذج القماش الزاهي، تتمثل في الآتي:

- الإسلام ينظِّم بالكتاب والسنة حياة الدنيا والعقبى، معاً. وينظِّم الاعتقاد والعمل، سويًّا. وينظِّم كيفية العبادة والأخلاق، في آن واحد.

- الإسلام يدفع -علاوة على ما تقدَّم- إلى التوجُّه نحو الأبعاد الممتدَّة اللانهائية: نحو الأنسام الأخروية، والمشاعر اللاهوتية التلوُّن.

- يهمس الإسلام في كلِّ أذن من آذان الإنسان: الروحية، والعقلية، والقلبية، والوجدانية، والحسِّية... خارج دائرة الصراع بين العقليين، والحسيين... الخ.

- الإنسان -بنداء الإسلام المتكامل- خليفة لله في الأرض.

- بِذَات النداء يصل الإنسان حالَ المداخلة في الأشياء، ومقامَ الفهم والاستقراء لأسرار سنة الله (والمقام لا يستلزم الإطلاق).

- يجمع الإنسان بين كتاب الكائنات، الذي هو من تجليات صفتي الإرادة والمشيئة، وكتابِ التنزيل، الذي هو من تجليات صفة كلام الله تعالى.

- على الإنسان أن يوازن، بميزان الأرض والسماء، وبميزان الأسباب وأسباب الأسباب، كلَّ شيء فيه: تصوُّرَه وفكرَه، وحياته وتصرفاته، وملاحظاتِ دنياه وأخراه.

- مادة **القماش الزاهي** للإنسان المسلم تتكوَّن من عناصر متكاملة هي: العقل، والوجدان، والروح، والجسد... مجتمعة. وكلُّ قماش نقُص منه عنصرٌ تشوَّه وفسُد، وفقد جماله وروعته.[١]

٥. نموذج المجانين:

لفتح الله العديد من النماذج،[٢] التي أعدَّت بعناية فائقة، بعضها أصبح مشهورا ومعروفا به، من مثل نموذج "وارثو الأرض"، ونموذج "إنسان الفكر والحركية"، ونموذج "أفق القرآن الساحر"؛ غير أنَّ أبرز هذه النماذج وأكثرَها شهرة في منظومة كولن، وفي "البراديم كولن"، ما عرف بنموذج "المجانين". يقول الأستاذ:

---

١ نظمت "أكاديمية الحوار الهولندية" ندوة في أمستيردام، يوم الخميس ٧ أكتوبر ٢٠١٠، ومما جاء فيها ملاحظةُ البروفسور ثوماس ميشل من جامعة جورج تاون الأمريكية، وهي مؤكِّدة لما أوردناه في هذا النموذج، إذ أرجع المتحدث في مداخلته "نجاحَ حركة جولن في تركيا الى الإخلاص البعيد عن المصلحة الشخصية وحسابات الربح والخسارة، وأضاف: جماعة كولن تولي أهمية كبيرة لفرائض الإسلام، ويتسع مفهوم العبادة لديهم ليشمل خدمة الشعب وبقية عباد الله دون أي مقابل..." وكالة جيهان، موقع أنترنت: http://www.cihanmedia.com

٢ من النماذج التي حصرتها بمطالعتي لعدد من المصادر، وأشَّرت عليها بالقلم الكاشف في مضانها، أذكر القائمة الأولية الآتية: نموذج النجم، نموذج الثعابين والجواد الأصيل، نموذج الطريق المفتوح، نموذج صاحب الوقت، نموذج الدوران في الدائرة المفرغة، نموذج الدجاجة والمرجان، نموذج السقوط من ارتفاع المآذن إلى عمق الآبار، نموذج دائرة الخير، نموذج القلة في الطعام والنوم والكلام، نموذج المبادئ التي لا تشيخ، نموذج الخلاف الفكري المحمود، نموذج الحال، نموذج الوظيفة، نموذج التربية قبل الإصلاح، نموذج العمي الذين يحملون المصابيح، نموذج الشجرة التي علقت عليها ثمار شجرة أخرى، نموذج الوعاء البلوري، نموذج الحلويات والأطعمة المالحة، نموذج الفرق بين العالم والإنسان، نموذج الأرواح الشهمة، نموذج ينبوع الإسلام، نموذج الشوك والغراب واللاعنين النور، نموذج من يتقيأ عند شمّ رائحة الورد، نموذج أوراق الخريف، نموذج الشجرة الطيبة، نموذج الكلام الجيد والتمثيل الجيد، نموذج الاستماع إلى صوت الضمير، نموذج أفق القرآن الساحر، نموذج الشلال، نموذج الوليمة الإلهية، نموذج المفتاح الذهبي لخزائن الكلمات، نموذج الذين عجنوا بروح القرآن، نموذج الإيجاد مرتين، نموذج العصف المأكول، نموذج الدائرة الصالحة، نموذج ألمانيا واليابان في التحضر، نموذج البائع الفاشل ... الخ.

"تشبَّع بحبِّ الله إلى حدِّ الجنون، لا يغرينَّك عنه حسنٌ ولا يفتنَّنك جمال، ارقَ على كلِّ المعادلات، وتسامَ على كلِّ المقاييس، ارفع شعار الثورة ضدَّ كلِّ مألوف، واهتف كما هتف الرومي "هلمّ إليَّ يا إنسان" ثم ادفن نفسك في غياهب النسيان. ناد كما نادى بديع الزمان "وا إنسانيتاه"، ثم امضِ ولا تفكّر بسعادتك الشخصية. أجل، انس رغد الحياة، انس البيت والولد، واسلك درب أهل السمو الواصلين لتكون من الناجين.

مجانينَ أريد، حفنةً من المجانين... يثورون على كلِّ المعايير المألوفة، يتجاوزون كلَّ المقاييس المعروفة. وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء منها يفرُّون وإليها لا يلتفتون. أريد حفنة ممن نُسبوا إلى خفَّة العقل لشدَّة حِرصهم على دينهم وتعلُّقهم بنشر إيمانهم؛ هؤلاء هم "المجانين" الذين مدحهم سيّد المرسلين، إذ لا يفكّرون بملذَّات أنفسهم، ولا يتطلَّعون إلى منصب أو شهرة أو جاه، ولا يرومون متعة الدنيا ومالها، ولا يفتنون بالأهل والبنين...

يا ربِّ، أتضرَّع إليك... خزائن رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كلَّ سائل مطلبه، أمَّا أنا فمطلبي حفنة من المجانين... يا ربِّ يا ربِّ..."(وجدانيات، موقع كولن، رقمي).

يتحدَّث الأنصاري رحمه الله عن رجال الخدمة وشبابها، ويؤكّد أنه لو لم يرَهم لقال "إنَّه مجرَّد وهم أو هُراء أو خيال"، إنهم قد تشرَّبوا الجنون وأشربوه، فارتووا من القائد المفدَّى، وكانوا بحقٍّ "مجانين".

يقول الأنصاري عن هؤلاء صادقا في وصفه: "مجانين.. يعشقون الخدمة اغترابا، من قَرّ سِبريا إلى حَرّ جنوب إفريقيا.. ولا تركوا جزيرة أو مغارة أو سهلا أو جبلا من كلِّ قارَّات العالم إلاَّ دخلوه، ووزَّعوا فيه

شُعاعات الصبح القريب.. يبتسمون للَسع الآلام، ويسعَدون بعبور حقول الشوك الجارح، فتسيل الدماء من أقدامهم، وتسيل الدموع من عيونهم، والقلب مسرور بالله!" (رجال ولا كأي رجال، موقع كولن، رقمي).

المهم أنه لو التقيت بأيِّ واحد في الخدمة، مهما كان مستواه الفكري، ومهما كانت مكانته الهرمية، ومهما كانت أقدميته في الهجرة، فستجده إمَّا "مجنونا" أو قريبا من "المجنون"، وهو مدرِك لهذه الصفة المذمومة -عادة- والمحمودة -اختصاصا-، فإن لم يكن مدركا لذلك باللفظ كان واعيا بها بالمعنى.

وأبرز القواعد التي تُعتصر من هذه الزفرة الإيمانية الحضارية للأستاذ:

- الدعوة إلى التشبُّع بحبِّ الله تعالى، إلى حدِّ الجنون.
- الإعراض عن كلِّ ما سواه، حتى وإن بدا حسنا أو جميلا.
- ضرورة الرقيِّ والسمو عن المعادلات والمقاييس الكلاسيكية.
- رفع شعار الثورة ضدَّ كلِّ مألوف، وضدّ "إنا وجدنا".
- لنلُذ بالله وحدَه، ولندفن أنفسنا في غياهب النسيان ودهاليزه.
- لننسَ رغباتنا الشخصية كلّها: رغد الحياة، أنس البيت والولد... الخ. ولنسلُك درب الواصلين.

- حفنةً من المجانين تكفي لإرشاد العالم إلى سبيل الله تعالى، بل رجل واحد مجنون بحقٍّ يحقق ذلك... ولذا قال سيدنا لوط عليه السلام لقومه: "أليس منكم رجل رشيد"، فلو كان بينهم لما فعلوا ما فعلوا.

- مِن صفات المجانين الثورةُ على المعايير المألوفة، والمقاييسِ المعروفة.

- المجانين يفرّون مِن المغريات، بينما الناس يتهافتون عليها.

- المجانين منسوبون إلى خفَّة العقل، لشدَّة حِرصهم على دينهم، وتعلُّقهم بنشر إيمانهم.

- المجانين لا تعنيهم ملذَّات أنفسهم، ولا يتطلَّعون إلى منصب أو شهرة أو جاه...

- الدعاء المتفجّر بركانا من الأعماق، هو: "يا رب، أتضرع إليك... خزائن رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كل سائل مطلبه، أمَّا أنا فمطلبي حفنة من المجانين... يا رب يا رب...".

- لمصطلح "الحفنة" دلالة القلَّة، وهي قرآنية المنشأ، وذلك في قوله تعالى: "وقليل ما هم"، وقوله: "وقليل من عبادي الشكور".

هذه أمثلة من الصور الإدراكية، والنماذج المعرفية، التي ينطوي عليها "البراديم كولن"، فيفكِّر من خلالها، ويتحرَّك على ضوئها، وهي مستخرجة ومستنبطة بتتبع الصور المجازية العميقة في فكر الأستاذ فتح الله، وأؤكِّد أنني بمعاينة واقع حركية الخدمة عاينت صدق ما ورد فيها في أكثر من موقع، وعند أكثر من واحد من أبناء الخدمة؛ وبهذا صقلت النماذج صقلا، وكثّفت تكثيفا، فصارت في تصوُّري أقرب إلى الحقيقة الصادقة، وإن لم ترق إلى الحقيقة المطلقة؛ ذلك أنَّها بشرية إنسانية نسبية، وليست ملائكية أو ربانية أو مطلقة.

العبارات الموجزة العميقة (الحِكَم)

العبارات الموجزة العميقة، أو الحِكم والمقولات المركَّزة، من المصادر الأساسية لاكتشاف نماذج أيِّ فكر، وهي وسيلة جيدة للولوج إلى حقيقة

القناعات والرؤى الكليَّة التي يظهرها أو يستبطنها أتباع هذا الفكر.

وسأورد جملة من هذه العبارات، مع ذكر الحقلِ، والقواعد والمبادئ التي يمكن استنباطها منها، تاركا الاستقراء الواسع "لمشروع موسوعيّ شموليّ جماعيّ، ندافع عنه، وندعو إليه، ونسأل الله أولا وآخرا أن يكتبً أسبابه وييسر سبله.

١. العابد والمعبود:

"ربنا لقد أوجدتنا مرَّتين... مرَّة عندما خلقتنا، ومرَّة عندما وهبت لنا الإيمان"

هذا نموذج للعلاقة بين الإنسان المخلوق والله الخالق جلَّ شأنه، أي بين العابد والمعبود، وهو يحمل قدرةً على إدراك مدى أهمية الميلاد الثاني، وذلك بالإيمان، ويعني أنَّ غير المؤمن وُلد مرَّة واحدة، ولذا فهو محروم من الميلاد الحقيقيِّ، الذي يهب الحياة الحقيقية، يوم يلقى الله تعالى وهو عنه راض.

وفي مقولة أدبية لكولن يعبِّر عن الميلاد الثاني بمصطلح قريب هو "الانبعاث الثاني"، مما جاء فيها:

"...ترى هل دقَّت ساعة العالَم،

ونهايته اقتربت،

وقيامته أزفت...؟!

إن لم يحدث هذا،

فانبعاثنا الثاني قادم،

وزماننا آت"

الفرق بين "الميلاد الثاني" و"الانبعاث الثاني"، هو أنَّ الأوَّل وظِّف في مستوى الفرد أساسا، وقد يصلح للأمم والمجتمعات تباعا؛ أمَّا الثاني، فقصِد منه مستوى الأمم والمجتمعات ابتداء، وقد يصلح للأفراد استثناء؛ فالنموذج هو ذات النموذج، والميلاد أو الانبعاث أو الصحوة، أو أيّ معنى آخر للحياة بعد الموت، لا يكون إلاَّ إيمانيا، ربانيا، قرآنيا، محمَّديا... وهو ما يسميه في مقام آخر: ذاتيا[1].

٢. العقيدة: بين الحفظ، والفهم، والفعالية:

"لا حاجة إلى تلقين المسلم فهما جديداً للإسلام، ولا إلى إعادة تعليم الإسلام للمسلمين من جديد. وإنما المطلوب العمل على تفهيم المسلم الأهميةَ الحيوية لما يعرفه عن الإسلام فعلاً، وقوة تأثيره، وديمومته الأبدية"

يفترض أنَّ المسلم لا يكون مسلما إلاَّ إذا استوعب كليات العقيدة وجزئياتها، وفهِم دينه فهما جيدا؛ غير أنَّ الكثير من المسلمين اليوم يحفظون كلَّ ذلك حفظا متقنا، ويكرّرونه -كلَّما دعت الضرورة- على شكل محفوظات، وهم مع ذلك لا يدركون قيمة ما يحملون، ومن ثمَّ لا يجدون قوَّة تأثيره في نفوسهم ولا في عقولهم، ولا تظهر انفعالاته على جوارحهم، فيتصرَّفون خلاف ما يعتقدون، ويَحيون الانفصام في أبلغ صوره، ويعيشون التناقض في أظهر أشكاله.

وإننا إذ نقرأ نصًّا لمالك ابن نبي نجد ما يشبه التطابق بين الفكرتين، وهذا دليل آخر على صدق المفكِّريْن وعلى صفاء نبعهما، يقول ابن نبي: "ليست المشكلة أن نعلِّم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهمُّ أن نردَّ إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوَّتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي. وفى كلمة

١ انظر: مقال "نحو عالمنا الذاتي"؛ ونحن نقيم صرح الروح، ص٢٩.

واحدة: إنَّ مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نُشعره بوجوده ونملأ به نفسه، باعتباره مصدرا للطاقة"(وجهة العالم الإسلامي، ص٥٥).

٣. ضرورة التخطيط، وأسباب الحضارة:

"إننا كأمَّة لا بدَّ لنا اليوم أن نعرف البرامج والخطط التي نسير بها إلى المستقبل، والمراحل التي نريد التنقل عَبرها في مسيرنا"، إلى أن يقول: "...إذن علينا أن نبحث عمَّا نأمله لغدنا، في نقطةٍ تتلاقى فيها البيئة الصالحة، وعشقُ العلم، وعزمُ العمل، والبحث المنهجي".

بتحليل هذا النصِّ ندرك أنَّ للبرمجة والتخطيط مكانة خاصَّة في "البراديم كولن"، ويسند هذه الفكرة وهذا النموذج العشراتُ من النصوص التي دعا فيها كولن إلى التخطيط والبرمجة،[1] بل نكاد لا نقرأ مقالا له أو فصلا من كتاب يخلو من دلالة التخطيط باللفظ أو بالمعنى.

ويعرض هذا النص أسبابَ قيام أيِّ حضارة، وسرَّ نجاح أيِّ مخطط، ويجمعها في أربع نقاط، تصل بين المحيط والعلم والبحث العلمي من جهة، والعمل والإرادة والطاقة من جهة ثانية، راسمة خط السير من نشأة الأفكار إلى نزولها إلى أرض الحياة، وهذه النقاط هي:

- **البيئة الصالحة**، وللصلاح دلالاته ومعانيه.

- **عشق العلم**، ولقد جعل الأستاذ من صفات ورثة الأرض العشقَ، ومن أبرز أشكاله، كما في هذا النص، عشق العلم... مع العشق الوجداني، والفني...

---

١ وانظر: فصل "أسباب الرشد وموانعه" من هذا الكتاب؛ وبالذات الأسباب الدعوية الحضارية، بعنوان: "التخطيط وفن استشراف المستقبل".

- **العزم على العمل**، وينبغي أن نستحضر النقطة الحسَّاسة بين العزم والتوكُّل والإنجاز، فكلُّ عزم حقيق يؤدي لا محالة إلى أداء صحيح، بناء على توكل مطلق على الله الواحد الأحد.

- **البحث العلمي**، وما أروع هذا السبب، وأروع منه الترتيب، الذي جعله نتيجة لا سببا، إذ في غياب البيئة والعشق والعمل يكون الحديث عن البحث العلمي مجرَّد شعار فارغ وادعاء أجوف.

٤. الإنسان والدولة والزمن:

"علينا أن لا ننسى أنَّ أهمَّ أركان ظاهرة الحضارة هو الإنسان المؤهَّل، وأقوى أسسها الحيويةِ هو دولة حرَّة ومستقلة، وأثمنُ رؤوس أموالها هو الزمن".

يصرِّح الأستاذ في مقولته هذه بأسباب الحضارة مجتمعة، من وجهة نظره طبعا، وهذه الأسباب هي محل اهتمام الخدمة، ومحل عناية "البراديم كولن" في كل مراحله:

- **الإنسان المؤهَّل**: هو أهم ركن في الحضارة. إعداده يدفع إلى العناية بالتربية والتعليم، وهذا ما ميَّز حركة الخدمة عن غيرها، وأبرز الحدَّ الفاصل بينها وبين محاولات أخرى للنهضة في العالم الإسلامي، فأسَّسوا على إثر ذلك الآلاف من المدارس في تركيا وفي أغلب بلاد العالم؛ يقول الأستاذ في موضع آخر: "إنَّ إصلاح أي أمَّة لا يكون بالقضاء على الشرور، بل بتربية الأجيال تربية صحيحة، وبتثقيفها ثقافة صحيحة، ورفعها إلى مستوى الإنسانية الحق".

- **الدولة الحرَّة المستقلة**: ومن ثم حاولت الخدمة أن لا تكون سببا من أسباب زعزعة كيان الدولة، مهما كان المبرِّر؛ حتى ولو تسبَّب ذلك

في أضرار بليغة على المشروع وعلى الجماعة، أو على الأستاذ نفسه. والأستاذ يوصي الشباب دائما بقوله: "لا بدَّ من إبداء المرونة أمام من يخالفوننا"، "ليكن حبكم لله وبغضكم لله، وابتعدوا عن عبادة النفس"، "لا تجعلوا الخلاف في الفكر والخلاف في الفهم وسائل للفرقة والعداء، بل عدوا هذا الخلاف مصدر غنى فكري".

- **الزمن**: هو عند كولن كما عند مالك بن نبي رأس مال الحضارة، بل إنَّ كولن يورد عبارة توحي بأنَّه وافق ابن نبي في معادلة الحضارة موافقةً تامة، في اللفظ وفي الدلالة، فقال: "هناك أمم عديدة تربَّت في مهد الإيمان والعشق والتصورات الروحية والمعنوية فأكسبت **الأرض، والزمان، والإنسان** قيما لا تقدَّر بثمن" وابن نبي يوظف مصطلح التراب عوض الأرض غالبا، لكنهما بمعنى واحد.

ويمكن أن نقول إنَّ معادلة الحضارة عند ابن نبي تتألف من ثلاثة عناصر: الإنسان، والوقت، والتراب؛ أمَّا عند كولن فتتألف من الإنسان، والدولة، والزمن... كما يمكن أن نقرِّر أنهما متفقان في موضوع الفكرة الدينية، على أنها أساس الحضارة ومُعامِلها. فالنموذجان يكادان يتطابقان، لو وسَّعنا المقارنة بينهما،[1] وبخاصة إذا عرفنا أنَّ التراب عند ابن نبي يعني السيادة كذلك، والسيادة عبَّر عنها كولن بالدولة الحرة المستقلة.

٥. القلم:

للقلم في أدب كولن مكانة خاصة، فهو يتلوَّن حسب طبيعته، ويعبِّر عن

---

١ في زيارة لوكالة جيهان كان لي حديث مع مديرها الأستاذ عبد الحميد بيليجي (Abdulhamit Bilici) حول أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين مالك بن نبي وفتح الله كولن؛ ثم طلب مني أن أعدَّ مقالا أعقد فيه مقاربة بينهما؛ أدعو الله أن ييسر أسبابه، أو أسباب دراسة جامعية عميقة في هذا الشأن.

مكنوناته بلا واسطة، فكأنَّ كولن غدا -من خلال المقولات- قلمًا صادقا لمعنى الوجود، أو كأنَّ القلم تقمَّص فكر الرجل وصار لسانا بليغا من ألسنته.

فعن السلم والحرب، يقول كولن، مخاطبا السيوف المشهَرات، بل كلَّ سيوف الكون، وكلَّ آلات الحرب والدمار:

"متى يا سيوفُ أقلاما تعُودِين؟!
متى يا دماءُ على الأرض تجفِّين؟!
والسيفُ إن عاد قلمْ،
مسح الألـمْ،
وهتك الظلْم والظُّلَمْ،
وعالج الداء،
وجاء بالدواء...
فمداد الأقلام في عقول الأجيال،
أوقعُ اليوم،
من سيفٍ كرَّار،
ودمٍ هدَّار،
وهو في الميزان كنجيع الشهداءِ في الميدان" (ألوان وظلال، ص١٨)

وفتح الله بهذه العبارات الشعرية يعبِّر عن نزعة السِّلم التي تشرَّبها "البراديم كولن"، لكنَّه ليس سلما ادعائيا، ولا هو سلم الشعارات والاعتبارات، وإنما هو سلم مردُّه إلى العلم، وإلى "اقرأ"، أي إلى القلم الذي يكتب ﴿باسم﴾، ويكتب باسم ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:٤-٥)؛ وكلُّ سلم دون هذا هو ردٌّ وهراء.

obeikandi.com

ثم يعود القلم مرَّة أخرى، مُزيلا للحيرة، ومذهبا للخوف، وناشرا للأمل، وباعثا على العمل، فكولن، وهو يخاطب فتاةً صغيرة مرسومة في صورة زيتية رائعة، أمامها قلم ملقًى، وورق أبيض، وهي حائرة، يخاطبها بخاطرة أدبية رائعة، اختار لها عنوانا: "قلم الإيمان"، فقال:

"على المكتب قلم،
وتحت ناظريكِ ورق بيض...
هيَّا اشرَعي،
وبالقلم أمسِكي،
واستنهضي عزيمتَكِ...!
ومخاضَ الفكر خُوضي،
ومع أفكاركِ حلِّقي،
وفي سماء الإيمان تألَّقي!
لا تتكاسلي!
فالوقت يمضي، وقلمكِ يصرُخ قائلا:
"إليَّ عودي،
ووعيكِ استعيدي... !"
فإذا أزَّ القلم أزيزه،
وسُمع على الورق صريفُه،
فالمبتغى وصلتِ،
وآمالك حصلتِ" (ألوان وظلال، ص٩٥).

obeikandl.com

فالقلم تحوَّل على يد كولن معلِّما ومربيا، ولم يشذَّ لحظة عن حقيقة الأستاذ "المعلِّم المربِّي"، يخاطِب الصغار كما يخاطب الكبار، الهمَّة هي ذات الهمَّة، والأبعاد الإيمانية الفكرية هي ذات الأبعاد؛ لكنَّ الذي يتغير هو الأسلوب، واللغة، والألفاظ... فلكلِّ جيل قاموسُه، ولكلِّ عمُر بيانه... والأستاذ فارسٌ في تصريف الفكر إلى الفعل بشتى الوسائل، وهذه ميزة من أبرز ميزات "البراديم كولن".

٦. الإنسان:

لا يخفى أنَّ الرؤية الكونية لأيِّ فكر أو جماعة إنما تتحدَّد في التصور والخطة والموقف، الذي يتبناه ذلك الإنسان في تصوره للعوالم الثلاثة: الله، والإنسان، والكون. فمِن خلال تتبُّع رؤية جهة ما إلى عالم من هذه العوالم، أو إليها مجتمعة، يمكن فهم الخريطة الإدراكية لتلك الجهة، ويمكن رسم خطِّ السير، والبرنامجِ، وفلسفةِ الحياة، لدى تلك الجهة.

وللإنسان في فكر كولن محورية مثيرة للانتباه، يحسُن أن تُتخذ مجالا لبحث متخصِّص، قد يكون بعنوان: "الإنسان في الرؤية الكونية لكولن" أمَّا في هذه العجالة فسنعرض نصيَّن اثنين يبيِّنان معالم النموذج الكولوني في فهم حقيقة الإنسان، وفي دفع الفهم إلى ما وراء الكلمة واللفظ، أي إلى الفعل والحركية.

في محاورة شعرية بعنوان "أيها الإنسان" ينشد كولن:

"أيها الإنسان،
امتدَّ واتَّسِع،
كن كونيَّ الزمان،
كونيَّ المكان،

سائحا في مَهُول الفضاءات،

لتعرفَ سعة الحقِّ،

وتؤمنَ بعظمة الربِّ...

وإلاَّ أخذك التيه،

واحتواك المجهول،

وخَبَلتْ الحيرةُ عقلَك،

وضيَّعت رشدك" (ألوان وظلال، ص٨٠).

ألسنا هنا أمام محاورة معرفية ابستمولوجية ثلاثية العناصر: الله، والإنسان، والكون؛ محدِّدة للعلاقة بينها، وبحقيقة السعادة في النظر إليها؟

ألسنا تجاه تعريف دقيق للرشد على أنه: امتداد الإنسان واتساعه في الكون الزماني والمكاني، وسياحته اللامتناهية في الفضاء، بغية اكتشاف سعة الحق، وإدراك عظمة الربِّ؟

يصف المسيري هذا النموذج الرباني للإنسان بقوله: "النزعة الربانية تعني خروج الإنسان من نطاق المرجعية الكامنة المادية ودخوله في نطاق المرجعية المتجاوزة، مما يعني ظهور ثنائية أساسية لا يمكن محوها، هي ثنائية الخالق والمخلوق الفضفاضة... وثنائية الخالق والمخلوق الفضفاضة ينتج عنها ثنائية أخرى هي ثنائية الإنسان والطبيعة. فالإله يزوّد الإنسان بالعقل الذي يميّزه عن سائر الكائنات، وهذا ما يجعله إنساناً إنسانا (أو إنساناً ربانياً)، أي إنساناً غير طبيعي/مادي، له جوهره الإنساني المتميز عن الطبيعة/المادة، يعيش في الحيز الطبيعي/المادي نفسه ولكنه قادر على تجاوزه وتجاوز ذاته الطبيعية"(الموسوعة، مادة الإنسان).

وعندما تكتمل صورة الإنسان، ويتحرَّر مِن أغلال المادة والمادية، تتفتح روحه على كلِّ جمال، وعلى أعظم جمال، بل وعلى مصدر الجمال كلِّه: الله تعالى، وفي هذا المعنى يقول كولن:

"أنعِم -يا إنسان- النظر،

ومِن سجن نفسك تحرَّر،

ولمحاتِ الجمال تشرَّب...

ودع قلبَك يطِر فرحًا،

وروحك يرقص طربًا...

واستشرف جمال "الجميل" في كلِّ جمال؛

تطمئنَّ نفسُك،

ويزدَدْ إيمانُك،

وإلى ربِّك تعُد إنسانًا،

خالصا في إنسانيتك..."(ألوان وظلال، ص٨٤).

والله إنَّ الإنسان الخالصَ في إنسانيته هو مبتغى الديانات، ومطلب الحضارات، ليس فوقه مبتغى ولا مطلب، ولا يتأتَّى ذلك إلاَّ بالعودة إلى الله تعالى، والارتماء في أحضانه، فاللهمَّ هبنا اللوذ إليك، وجوارك ومعيتك... آمين.

بنموذج الإنسان ننهي السياحة في المصدر الثاني للنماذج الإدراكية للبراديم كولن، ونعني بذلك "العبارات الموجزة أو الحِكم"، غير أننا يقينا لم نتتبع كلَّ هذه العبارات، وإلاَّ لما كان المجلد والمجلدان كافيين لاستيعابها، ويكفي دليلا لذلك أنَّ كتابيه المترجمين إلى العربية

obeikandl.com

"الموازين"، و"الظلال" يمثلان قاموس هذه الحكم، ولعل الله تعالى ييسر إنجاز "قاموس للنماذج" من خلالها، ومن خلال غيرها مما ورد في تراثه غير المترجم بعد إلى اللغة العربية.

التصرفات العفوية، والسلوك الواعي

لو كان هذا البحث خالصا للنظر لكفتنا النماذج المستخرَجة من خلال "الصور المجازية"، والمستنبطة من "الحِكم العميقة الدقيقة"؛ لكنَّ البحث آل على نفسه أن ينظر في الخط الفاصل-الواصل بين الفكر والفعل، وبين التنظير والتطبيق، انطلاقا من نموذج الرشد، ولذا كانت "التصرفات العفوية، والسلوك الواعي" مصدرا أساسا في اكتشاف نماذج "البراديم كولن".

وكتاب "فريد الأنصاري" -رحمه الله- المعنون بـ"عودة الفرسان"، يصف بما لا يدع مجالا للزيادة جوهرَ الشيخ من صباه إلى شيخوخته، من بداياته إلى ذروة عطاءاته. ومثالان اثنان من تصرُّفات الأستاذ التي وصفها الأنصاري، يكونان لنا دليلا صادقا على النماذج التي يعمل وفقها الأستاذ كولن:

١. من العزلة إلى المخالطة:

تُرى لو كان الأستاذ منعزلا عن الناس في معبدِه، هل سيحقِّق مشروعُ الخدمة كلَّ هذه القفزة الحضارية الفريدة؟ أو أنه كان مخالطا للناس على الدوام، دون خلوة للرياضة النفسية والإيمانية، هل ستبلغ الخدمة هذا المدى؟

النموذج الذي ميَّز الخدمة في موقفها من العزلة والمخالطة، يزن بميزان تريص بين القطبين، فلا يغلِّب جانبا على جانب، يقول كولن: "وفي الحقيقة ليس في الخلوة الماورائية تجرُّد عن الخلق واعتزالهم" مستشهدا بمقولة

جلال الدين الرومي: "إنَّ الإنسان في مثل هذه الخلوة كالفرجال، إحدى ساقيه في أفق اللاهوت، والأخرى في قطب الناسوت"(التلال، ص٥٢).

ولم يصل كولن إلى هذه القناعة، ولا إلى هذا المسلك، بيُسر وسهولة؛ لكنَّه عانى المعاناة كلَّها؛ حتى هداه الله إلى أقوم سبيل، فيورد الأنصاري حادثة وقعت للأستاذ في "أدرنة"، هي نقطة تحوُّل في حياته الخاصة، بل في حياة "البراديم كولن" كلِّه، لولاها لكان الأمر غير ما هو عليه، ولشهدنا طريقة "تصوفية متخدرة خالية من الروح"(الموازين، ص٢٨).

ففي "أدرنه" حاصَرتْه الفتن والابتلاءات من كلِّ جانب، فكان "كغصن أخضر ينتصب وحيدا في غابة من الحطب المشتعل"، وآثر الرياضة الروحية القاسية "حصارا لنفسه الأمَّارة، أن تضعُف بين يدي فتن "أدرنه"، وكان سلوكه في هذه المجاهدة غير مألوف "فلم يكن ينام إلاَّ قليلا، ولا يأكل إلاَّ قليلا، ولا يتكلَّم إلاَّ قليلا" واستمرَّ به الحال على ذلك "فاستمرَّ الفتى في رياضته الروحية الغريبة، حتى صار إلى نوع من الشعور بالاستيحاش من الناس"، وتوالت عليه المشاهدات والرؤى، فتجلَّت له نفسه مرَّة على صورة قطَّة، ثم على صورة دبٍّ، ثم على صورة غوريلا.

بينا هو كذلك من حال غريبة إلى حال أغرب، حتى حدثت الحادثة المِفصل، التي يقول عنها الأنصاري: "تهاوى جسم السالك المجنون؛ حتى أقعِد المستشفى مدَّة نصف شهر كاملة، تحت الرعاية الطبية، وهنالك تلقَّى خبر مرض والده، فازدادت حالته سوءا وتدهورا!، وكانت تلك مناسبة للدخول في منزلة المراجعات!"

وأخيرا "أدرك فتح الله أنَّ نفسَه لبَّست عليه، ودلَّست عليه الباطل في ثياب الحقِّ!، فأتته من حيث لا يحتسب، وجعلت تستدرجه إلى الهلاك

المبين!... وأخيرا وجد باب الخروج، واتضحت له معالم مسلكه الجديد... وأدرك فتح الله أنّ مجاهدة النفس، وتهذيبَ غرائزها؛ لا بدَّ أن يكون من خلال الانخراط في المجتمع، وخوضِ غمار الحياة الاجتماعية، ومشاركة الناس همومهم وآلامهم... وأنَّ العزلة المطلقة مغامرة خطيرة غير مضمونة العواقب! ثم شاهد عيانا أنَّ مجاهدة النفس وترويضها، بالسير في مسلك الدعوة إلى الله، وخدمة الدين ونصره في البأساء والضرَّاء، هو أكبر ضمان لتحقيق توازنها الروحي، وحفظها من الانزلاقات إلى المنعطفات الهاوية" (عودة الفرسان، ص١٤١-١٤٤).

من خلال هذا الوصف الأدبي البديع لِما حدث لكولن في "أدرنة"، نفهم موقف الرجل أولا، وموقف الخدمة تبعا، مِن أحد أعقد إشكالات الحركة والدعوة في العالم الإسلاميّ اليومَ: أيْ العزلة والمخالطة؛ أيهما المشروع وأيهما البدعة؟ لمن تكون العزلة دينا، ولمن تكون عصيانا؟ وهل كلُّ الناس مطالب بالمخالطة؟

الجواب الشافي من منظور "البراديم كولن" يكمن في هذا السلوك الذي سلكه فتح الله، وكاد يفقد فيه مهجته، إلى أن كسب الرهان وأكسبه للملايين من المنتمين، ممن صاروا يُعطون لكلِّ حال حقَّها ومستحقَّها، بعيدا عن الرفض المطلق أو القبول المطلق. ولعلَّ الباحثة إيمان قنديل عبَّرت أفضل تعبير عن هذا السلوك المتوازن، لا في المقولات والنصوص فقط، لكن في الميدان وفي خضمّ الحياة... تقول في خواطرها المعنونة بـ"إحياء عصر الصحابة في تركيا": "لم يكن من المتوقَّع لنا إطلاقا -على أيَّ مقياس من مقاييس العالم الحديث- أن نقابل رجالاً يملكون هذا القدر من المال والطاقة للعمل الخيريِّ التطوعيِّ، يتَّصفون بمثل ما رأيناه

من ورَع وتواضع وتفانٍ منقطع النظير، يبتهلون إلى الله ليلا نهارا أن يوسِّع في أرزاقهم حتى يستطيعوا رعاية الآخرين، دون أي استعلاء أو شعور بالفخر"(موقع فتح الله، بتاريخ ٧ أوت ٢٠٠٩م).

٢. اقبلني يا رسول الله:

ذكَرنا في بداية هذا البحث أنَّ من خصائص "البراديم كولن"، التي ترسم خطًّا عريضا في الحدِّ الفاصل بين هذا المشروع وغيره "الحبُّ الشديد لرسول الله ﷺ"؛ ولقد ظهرت آثار ذلك الحبِّ مقالاتٍ، وكتبا، وأشعارا، وحِكما، وأدعية؛ حتى إنَّ الأستاذ فتح الله أحسَّ بالوجد يحرق فؤاده، فيكاد يذرُه رمادا باهتا، فَلاَذ بإملاء "النور الخالد" على الجماهير؛ ليطفئ نار الجوى والعشق؛ فما انطفأت لكنَّها ازدادت أوارا واحمرارا...

وإنَّ التصرفات التي تصدر من الأستاذ وممن حوله لَتتحوَّل إلى لسان بليغ عمَّا يجيش في قلوب هؤلاء وفي عقولهم، ولقد كتب الأستاذ مقالات يوم تقدَّس خطوه بقدسية مكَّة المكرمة والمدينة المنوَّرة، فأبدع فيها وأبدع منها، ومما ورد في مقال "الروضة المطهَّرة" واصفا حاله عند هذا المعلم الملائكي الخالد:

"لقد رأيت حتى الآن العديدَ من الأماكن المباركة التي تحمل ذكريات روحية ومعنوية. ولكن الروضة الطاهرة للرسول ﷺ كانت وستبقى إلى الأبد صاحبة أعمق الآثار في قلبي. فقد احتضن روحي تلك البلدة على الدوام بحسرة مَنْ هدَّه الشوق للوصال. وكلَّما احتضنها يرتفع صوت من أعماقي يقول: "هذه هي البلدة التي لن أستبدل بحفنة ترابها العالم كله".

ثم يعترف بتواضع أنَّ "هذه أحاسيس روحٍ فجّ لم ينضج بعدُ. أمَّا ما يشعر به أصحاب الأرواح السامية بالعرفان، والمحلِّقة عاليا بالعشق، فيجب

أن نستمع ذلك منهم ونتعلَّم. وما أحاول هنا قوله هو أنني -بقابلياتي المحدودة القاصرة- أحاول فقط إثارة أهلِ الحمية... فإن استطعتُ هذا عددته وسيلة لإحراز رضا روح سيد الأنام، فأقبل لألمس مطرقة بابه متوسلا ومتضرعا: "اقبلني يا رسول الله!.. اقبلني بأبي أنت وأمي!"".

ونموذج "اقبلني يا رسول الله" يتكاثف في جميع تصرُّفات الأستاذ، ويجعله يتعذَّب دوما، ويبكي -وهو الملقب بالضحَّاك- بكاء الثكالى خوفا من التقصير، ثم يُبكي من حوله من الشباب والكهول والشيوخ، ولا يمكن أن يُنسى ذلكم المشهد المسجَّل على الفيديو، وفيه يذكر الأستاذ حديث رسول الله ﷺ: "سيبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار"... ثم يعتذر للرسول ﷺ أنّنا قصَّرنا في حقِّه، ويجهش ببكاء صامت، ما فتئ أن تحوَّل إلى نحيب لا ينقطع، وتسيل خدوده شلالات من الدموع المنهمر لا تنقطع ولا تني؛ حتى إنَّ الواحد منا ليشفق عليه، ولكنه لا يشفق على نفسه، وهو يقول: "وجدتُ رسول الله ﷺ غريباً في كثير من الديار التي جُلْتُها، كنت أشعر وكأنني أبتلع المسامير". ثم يقول، "لأنني وجدت غربة النبي ﷺ في بلاد أوربا وأمريكا.."(شريط فيديو).

ويبقى الأستاذ دائما في خوف ووجل مِن أنه لم يبلغ ما يجب أن يبلغه في حبِّ المصطفى، وفي عشق خير البرية، ويعتذر ثم يعتذر مرَّات ومرَّات: في أدعيته، وفي محاضراته، وفي كتاباته، وفي مجالس الصحبة التي يعقدها... ولا شكَّ أنَّ ذات الصفة انتقلت إلى شباب الخدمة، فتقمَّصوها، وتمثَّلوها، وأبدعوا في التعبير عنها.

وبهذين المثالين من تصرُّفات الأستاذ نستطيع أن نعرف شيئا عن الخصائص البارزة "للبراديم كولن"، ويبقى البحثُ المتواصل في حركياته،

مِن يوم بدأ خطَّ الدعوة إلى يوم الناس هذا، مطلبًا أساسًا، ومصدرا رئيسًا، لِتقصِّي حقيقة المشروع والحركة؛ لعلَّ الله يقيِّض من يشتغل بمثل هذا المدخل، فهو خصب بحقٍّ.

ومِن هنا ننتقل إلى ثلاثة نماذج من تصرُّفات شباب الخدمة، مما لاحظناه أثناء معاشرتنا لهم. وهي:

٣. سلَّم الاحترام، لا سلَّم التسلُّط:

في العلاقة بين الصغير والكبير، وبين المسؤول والموظَّف، وبين المعلِّم والتلميذ... ثمة نسقان غالبان هما: النسق المغلق، والنسق المفتوح؛[١] وتكاد البحوث والدراسات تُقنعنا أنه لا نسق ثالثَ بينهما؛ فإمَّا أن يكون نسقًا "تسلُّطيا"، "سُلَّميا"، "أحادي الاتجاه"، أو يكون "حِواريا"، "حرًّا"، "متعدِّد الاتجاه"؛ ولكلا النسقين إيجابيات وسلبيات.

أمَّا في الأيام التي قضيتها بين ثنايا الخدمة، فقد اكتشفت أنَّ هنالك مَن جمع بين إيجابيات النسقيْن، لا بطرح نظريٍّ تنظيريٍّ فقط، لكن بتطبيق وممارسةٍ تكاد تكون طبيعة وسليقة وسجية.

فمِن بين العديد من الأمثلة أذكر أننا في يوم من الأيام كنا في "الأكاديميا"، ضمن وفد من رجال الأعمال الجزائريين، وكان أحد الباحثين في "الأكاديميا" يجيب على بعض أسئلتنا، فدخل القاعةَ مسؤولٌ أكبرُ منه منصبا ومكانة، فما لبِث الباحث أن حوَّل الكلام إلى المسؤول، واكتفى بالتعليق الحيي بأدب جمّ، ثم دخل مسؤول آخر أكبر من الثاني درجة، فضبط المسؤول الأوَّل كلامه، وترك المجال للمسؤول الأكبر حتى يجيب ويتبحر في الكلام والتحليل والإجابة على الأسئلة

١ انظر: محمد باباعمي، قاموس النسق المفتوح، سلسلة ما بأنفسهم، نشر مكتب الدراسات.

obeikandl.com

الملحَّة والمتفرِّقة، التي يطرحها وفد الجزائر باهتمام.

وما إن خرجنا من الجلسة العملية، حتى نظر بعضنا إلى بعض، وعلَّق الكلُّ بنفس الملاحظة، منبهرا من الاحترام المشوب بالأخلاق الطيبة، فلا جفاء عند الموظَّف، ولا تسلُّط من قبل المسؤول، ولقد كانت الكلمات والإشارات والحركات التي تصدر من كلِّ واحد منهم عفوية، غير متكلَّفة، تنمُّ عن أدب جمّ، واحترام منقطع النظير.

وأجزم أنَّ هذه الحالة ليست شاذَّة، بل هي الغالبة، في كلِّ الزيارات التي عقدتها، للمؤسَّسات التربوية، والإعلامية، والتجارية... وغيرها. فدائما هنالك احترام، وكذا انفتاح، والذي يعلَم شيئا هو الذي يشار إليه بالبنان، والذي لا يعلم يعترف، ويصمُت ويستفيد... ولم أذكر يوما أنني لاحظت سوءَ معاملة، أو أمرًا حادًّا من كبير لصغير، كما أنني لا أذكر أنني شاهدت تلكُّأ أو خوفا أو تصرُّفا غير لائق صادر من الصغير في حضور الكبير...

وهذه سمة من سمات "البراديم كولن"، إنَّه الطريق الثالث بين "النسق المغلق" و"النسق المفتوح"، إنه طريق نبعه الإسلام بروحه وصفائه؛ وهذا يقودني إلى التذكير بمقولة المفكر علي عزت بيجوفيتش: "إنَّ الإسلام هو وحده الذي يستطيع إعادة إحياء القدرات الخلاقة للشعوب المسلمة"(مذكرات، ص٤٧).

حقًّا، لقد أحيا الإسلام قدرات هذا الشعب، من خلال "البراديم كولن"، فانبرت طاقتهم تصنع الحضارة بعزم وحزم، وبثقة وثبات.

٤. المذهبية فقه لا عصبية:

هاجس المذهبية والانتماء المذهبي، وبالذَّات ما يعرف بالتعصُّب للمذهب، لا يزال يُلقي بظلاله على الشعوب المسلِمة، في العديد من

مناطق العالم؛ ومِن عجب أنه أحيانا يسافر مع المهاجرين المسلمين إلى البلاد الغربية، فيقطعهم جزرا وجماعات وعصبيات لا حدَّ لها ولا حصر؛ ولقد أبدع المفكر جيفيري لانغ في وصف هذه الحالة لدى مسلمي أمريكا، في كتابه المعنون بـ"حتى الملائكة تسأل".[1]

ولقد كنتُ أحمل معي سؤالا عن "البراديم كولن" هو: ما مدى ارتباط هؤلاء بمذهبهم العقديِّ الماتريدي، وبمذهبهم الفقهيِّ الحنفيِّ ثم، ما مدى تقبُّلهم لمن هو خارج هذه الثنائية، وبخاصَّة إذا كان من غير أهل السنَّة والجماعة، في التصنيف التاريخي المألوف؟

وأقرُّ أنَّ الجواب سريعا ما أتى، حاملا معه مواقف إيجابية صادرة من الإخوة في "البراديم كولن"، والذين عاشرتهم لمدَّة طويلة نسبيا، ذلك أنهم لم يُبدوا أيَّ تعصب، أو موقف سلبي، أو حتى سؤالٍ عن المذهب، وعن الاختلاف، وعن الجزئيات، وعن الحقِّ المطلق في جانب على حساب آخر... وإنما تجدهم يهتمُّون بالقواسم المشتركة بين المسلمين، ويبحثون في الهمَم التي تنظُر إلى الإسلام على أنه حضارة متكاملة، وهم مع ذلك ملتزمون بمذهبيتهم بعناية، ومتَّبعون للخطِّ العام لاتجاههم باهتمام... ولا أدري، هل هذا التسامح المذهبي يخص "البراديم كولن" وجماعة الخدمة، ومن قبلُ الأستاذ فتح الله فقط، أم أنها صفة لازمة لجميع الإخوة المسلمين الملتزمين في تركيا، بسبب أنَّ منافسهم من جهة أخرى هو العلماني الإقصائيُّ، والشيوعي المتطرِّف، والتغريبيُّ الحاقد... وأنهم في

١ يقول جيفري لانغ: "لم يدم الوقت طويلا -بعد اعتناقي الإسلام- حتى أدركتُ أنَّ المسجد كان منقسِماً على نفسه بين عدَّة فصائل، يحاول كلٌّ منهم أن ينافس الآخرين في السيطرة... وكنت أشعر في بعض الأحيان أنَّ كلاً منهم كان يحاول جذبي إلى صفوفهم... وسرعان ما تولَّد لديَّ انطباع، وهو أنه بالرغم من أنَّ الإسلام ينهى عن الغيبة والنميمة، فإنَّ المسلمين نمَّامون ومغتابون بالعادة، وأنَّ ذلك هو الشغل الشاغل للجالية الإسلامية" (ص٢٨٢-٢٨٣).

مواجهة مصيرية معه، ولو سلميا، ولذا نأوا بأنفسهم عن الصراع المذهبي الداخلي الضيق؟

ولست أقدر أن أعدِّد الملاحظات التي تدل على هذا الحكم، ويكفي للواحد سفرًا واحدا إلى تركيا، حتى يكتشف صدق ما أقوله. ولقد وفّق علي يحي معمر، حين دعا إلى: "المعرفة، والتعارف، والاعتراف" في نظريته التوحيدية الحضارية الشمولية؛ وإنك لتجدها في هذا المجتمع الجديد متجسّدة بادية للعيان.

٥. للعالَمين: الهجرة للدعوة:

في سنة ١٩٨٩م، عرَف العالم حدثا تاريخيا فريدًا، متمثلا في سقوط روسيا، القطب الثاني في توازن القوى في العالم، بعد الولايات المتحدة الأمريكية ومن لفَّ لفَّها؛ ولقد سقطت الحكومات التي كانت في فلك روسيا واحدة تلو الأخرى، وعرفت بعض الدول أزمات خانقة، سياسية، واقتصادية، وأمنية...

ولقد انقسمت روسيا إلى العديد من الدويلات، بعضها لها تاريخ إسلامي عريق،من مثل(بيلوروسيا،وكازاخستان،وقرغيزيا،وطاجيكستان،وأوزبكستان). وبينما كانت أغلب الشعوب والدول الإسلامية الأخرى في موقف المتفرّج السلبي، كان الأستاذ كولن يحترق همًّا، ويسمو همَّة، وهو يسأل نفسه: مَن لهؤلاء المسلمين في هذه البلاد؟ ألا يمكن أن نكون سندا وعونا لهم؟

فلم يكتف الأستاذ بالخطاب والوعظ والهمّ، لكنَّه كعادته انتقل إلى الحركية والفعل، فجمَع الآلاف من أنصار الخدمة، وعرض عليهم مشكلته، ثم طالبهم بإحياء الهجرة إلى تلك البلاد، بنية إحيائها... فاستجاب له الآلاف من الشباب غير المتزوّج، وسارع إلى هنالك يبني مدارس، ويعلِّم

حرفا، ويرشد حيارى، وينظِّم جمعيات، ويوجه أفكارا... فتمَّ بحمد الله على يدهم الكثير من الخير والإيمان في صفوف هؤلاء المسلمين المستقلين عن الاتحاد السوفيتي.

وهذه الحادثة العملية دالة دلالة واضحة على النموذج الإدراكي لدى جماعة الخدمة، ومعرِّفة تعريفا صريحا معنى الانتماء إليها؛ على أنه جهاد ومثابرة، وصبر ومصابرة، وليس علاواتٍ توزَّع، ولا حقوقا توهب؛ إنما هو واجب ودين، وفي هذا سر النجاح والانتشار، وسر النصرة والانتصار. يقول مجدي سعيد واصفا هذه الحال: "وفي إطار ذلك المشروع -أي الخدمة- وظَّفوا معنى وقيمة أخرى وهي "**الهجرة**" بمعناها المعاصِر؛ فهم يقدِّمون مشاريعهم تلك خدمة للإنسانية في أنحاء مختلفة من العالم، وهذا يتطلَّب من الإنسان أن يذهب إلى بلدان ربما لم يسمع عنها من قبلُ، مضحِّيا براحته واستقراره في بلده؛ ليعيش في بيئة وثقافة تختلف عن ثقافته وبيئته؛ رغبة في خدمة الخلْق إرضاءً للحق" (مقال بعنوان "فتح الله جولن... عندما تصنع القيم تنمية"، موقع كولن، رقمي).

وبهذا نكون قد حفرنا في نماذج كولن، من خلال مداخل ثلاثة، داعين الله تعالى التوفيق في استكشاف مجالات أخرى، من مداخل أخرى.